رحلة إلى الشرق

تسللت إلى مكتبي لأعد الأوراق التي سأحملها معي للمؤتمر ولأدفن التقارير والكتب في الأدراج كمن يتخلص من عبء ثقيل . لم تكن لي رغبة في التحدث مع أحد . ولا لسماع كلمات الوداع . فوجئت بباب الحجرة يفتح وبالموظف الكبير يطل منه بوجه يشبه وجه القط الروسي المبتسم .

« صباح الخير . أتيت لأسلم عليك »

« أهلا وسهلا . تفضل »

دخل وجلس . تنهدت مستسلماً وضغطت على الجرس .

« فنجان قهوة ؟ »

« لا مانع »

جاءت القهوة . وانغمس الرجل في المقعد كمن يستعد لحديث طويل . راقبت حركاته بعين قلقة ، وهو يشعل سيجارته الطويلة ، ويمد ذراعه ليكشف عن أزرار قميصه الذهبية . ابتسم في نعومة وقال :

« أردت أن أودعك قبل أن تسافر . أرجو لك رحلة موفقة » .

« أشكرك على هذه اللفتة . أنت دائماً سباق » .

صمت لحظة ثم استطرد :

« ولكن هناك شيئاً لا أفهمه . ما الذي جعلك تختار السفر إلى آسيا لقد كنت أنا هناك منذ عدة سنوات ضمن وفد سافر مع أحد الوزراء . الجو هناك لا يطاق . . . حرارة عالية ، ورطوبة لم أشهد مثلها لا من قبل ولا من بعد . ثم هذه البلاد . . . الشقاء . والبؤس الذي يقابلك في كل مكان . ستكون رحلة شاقة » .

نطق الكلمات كمن يشفق على حالى إشفاقاً شديداً ؛ وحملق فى وجهى بعينين فاترتين فيهما طيبة. آثرت الصمت فأسقط رماد سيجارته فى المنفضة وأكمل كلامه .

« أما أوربا فهناك الراحة الحقيقية . الرقى ، والنظافة ؛ والمدن الحديثة ووسائل التسلية التى لا تنتهى ؛ السفر بالنسبة إلى أوربا ، أو أمريكا . وما عدا هذا فلا يستحق العناء » .

أثارنى كلماته فقررت أن أخرج من الصمت .

« أنا لا أبحث عن الراحة » .

تطلع إلى مرة أخرى كمن يواجه شخصاً فقد اتزانه العقلى .

« عم تبحث إذن ؟ » .

« أبحث عن الفهم » .

« وما الذى ستفهمه فى بلاد آسيا » .

« لا أعرف . لذلك قررت أن أذهب » .

. . . . . .

الطائرة الضخمة رابضة على الأرض ؛ بطنها منتفخ كالحشرة الحبلى ، والعلامات الحمراء تلمع عند ذيلها الطويل بأضواء تنذر بالخطر . شىء ما فى وقفتها يذكرنا بالطير الجارح يستعد للانقضاض . وصوت نسائى كسول يتكلف نطق الكلمات بوضوح فتضيع فى مكان ما عند فتحات الأنف الداخلية يقول : « الطائرة جال ٥٤٠ ستقلع بعد نصف ساعة » . ثم تختصر الجملة فى سلسلة من الكلمات غير المفهومة .

تبادلنا القبلات الخاطفة ، الوجه الأسمر تحت هالة الشعر الأبيض ، والعينان اللامعتان فى صفاء حاد لا يلين ، وعينا الطفل المرفوعتان إلى فى تساؤل بريء وهو يقف منتصب القامة يسند رأسه إلى ردفها الأيسر ؛ تحتوى وجهه من الجانب الآخر يدها الحانية بأصابعها الطويلة كأنها تريد أن تحميه . والفتاة الطويلة ترمقنى بنظرة فيها جد من خلف النظارة

البيضاوية . . . . نوع من الانفصال المتأمل للمشاهد الذى ينتظر فى هدوء نهاية أحداث تجرى أمامه .

كان ينبغى أن أشعر بالحزن ، أو بشىء ما يشبه الضيق ، أو بغصة فى الحلق ، ولكننى لم أشعر بكل هذا . كنت أنا أيضاً كالمتفرج ، المتأمل ، أنتظر ميعاد السفر مثلما ينتظر السجين فتح باب الزنزانة صباح يوم الإفراج . ليست اللهفة الحارقة القلقة ، التى لا تكاد تحتمل لحظات الانتظار ، وإنما تطلع هادئ إلى أشياء ستحدث ، إلى تغيير فى الحياة ، إلى مبارحة الناس والأشياء التى أصبحت جزءاً ثابتاً متكرراً من حياة تتكرر على المنوال نفسه .

عقلى يقول لى إننى سأفتقدهم ، ويسجل هذا الفقدان الوشيك بهدوء لا يهتز ، وذراعى — كالجناحين — تستعدان للطيران فى الفضاء الواسع . مررت من الباب الحديدى الصغير وانهمكت فى إجراءات السفر . . بشىء من الارتباك الداخلى الخفيف الذى ينتابنى كلما واجهت تجربة جديدة فى الحياة . . .

جلست فى صالة الترانزيت أنتظر فى قلق إشارة الرحيل . على «البار» جلس اثنان : رجل وامرأة ، يدخنان فى هدوء ، تبدو عليهما علامات التعود على التنقل بين مطارات العالم : الملابس الجلدية الأنيقة تلف الجسدين الفارعين : والشنط المربعة الصغيرة التى توضع فيها الأدوات الضرورية ، والحركات القليلة المدروسة من اليدين والرأس ، والحديث الهامس المطمئن للمسافر الذى يعرف متى ينبغى له أن يستعد للرحيل .

أخرجت كتاباً لأقتل الوقت ولكن ذهنى أخذ يهرب من بين السطور . ووجدت نفسى أحملق فى رجل مربع الجسم أخذ يروح ويجىء بين المقاعد الجلدية الحمراء فى عصبية ، ويدور بعينيه على الناس كأنه يبحث بينهم عن أحد . فجأة اتجه نحو شاب يرتدى ملابس المضيف الزرقاء كان قد دخل بعلى التو من أحد الأبواب . انهمكا فى حديث

طويل أمام صوان العطور . ثم انضمت إليهما مضيفة شقراء تبادلت معهما بضع كلمات . ثم سارت نحو الباب المفضى إلى المطار : هى تتمايل فوق كعبى حذائها العاليين الرقيقين .

سرح ذهنى وأخذ يسبح فى قصة تهريب خيالية ، شىء ما فى تصرفات الثلاثة كان غريباً . انتزعت من تأملاتى على صوت نسائى نفاذ يقول : « نرجو من المسافرين على الطائرة جال ٥٤٠ أن يستعدوا لركوب طائرتهم » .

حملت حقيبتى نحو الباب . الزمن يمر سريعاً الآن ، فالحركة تختصر الوقت . التفتيش . ثم الأتوبيس . رأيت مبنى المطار يبتعد والناس ينكمشون إلى نقاط منونة صغيرة تلوح من بعيد . صعدت إلى الطائرة وأخذت مكانى بجوار النافذة . ابتعد السلم المتنقل عن باب الطائرة .

زحفت الطائرة ببطء فوق المدرج ثم دارت حول نفسها لتقف عند أول مجرى الصعود . علا صوت المحركات كالرعد . وقفز الهيكل الفضى فى سباقه الجنونى فوق الأرض . أحسست بالضغط فى أذنى ، وبدقات القلب تسرع قليلا . رأيت الجناح الضخم يلمع فى ضوء الشمس . وارتفعت الطائرة فجأة كأنها تتخلص من جاذبية الأرض بجهد عنيف . نظرت إلى أسفل . القاهرة الآن تبدو كالخريطة الخضراء . أسندت رأسى إلى ظهر المقعد وتركت نفسى تصعد مع الطائرة فوق موجة عارمة من السعادة .

هكذا بدأت الرحلة .

ترانزيت

الطائرة اليابانية تسبح فوق السحب بهدوء محمولة على أجنحة حادة تشق المساحات الزرقاء فى إصرار . هنا فى هذا العالم الصغير كل شىء مدروس بدقة ، الابتسامة التى تهتز فوق شفتى المضيفة وهى تنحنى لتصب

لك قدحاً من القهوة ، والطلاء الأبيض كسن الفيل يريح العينين ، وزجاجة الكولونيا الخضراء فوق الحوض المعدنى . ومسند الرأس يدعوك للنوم أو للسرحان ، والبيض المنتظم يسرى فى الجسد الطويل . غريبة هذه الخيرة . تنقلك فى لحظة من قاع الدنيا إلى قمتها . قبل أن أسافر بيوم واحد كنت متجهاً من مركز « بسيون » إلى قريتنا فى سيارة عتيقة تئن تحت وطأة الأجساد المحشورة فى جوفها . . . عذاب لم تفلح الأحاديث الضاحكة فى التخفيف من وطأته .

انتزعنى صوت المضيفة تذيع بلكنة يابانية مثيرة للتوتر : «بعد عشرين دقيقة سننزل فى مطار طهران » .

صالة الترانزيت تخلق فوقها كآبة غريبة . تلك التى تجدها فى كل صالات الترانزيت عندما يزحف عليها الليل ، وساعات الانتظار الطويلة . فى دورة المياه وقف خمسة من الرجال بأثوابهم البيضاء التى تشبه لباس العرب ، وتقاطيعهم الحادة تنتهى عند لحى طويلة مدببة وخطها الشيب ، يتوضأون عند حنفيات المياه ، ويتبادلون الحديث فى كلمات صوتها أجش . خرجت وجلست على مقعد عند نهاية الصالة الفسيحة . كانت مكتظة بعشرات المسافرين . . . وجوه يابانية متشابهة . صامتة ، تجلس فى سكون بدون حركة ، أو تغلق عيونها فى نوم عميق .

بين وقت وآخر كنت أفاجأ برجل أو امرأة تنتفض واقفة لتقوم ببعض الحركات الرياضية مثل دمية ميكانيكية . ثم تجلس من جديد . شىء فيهم ، لا أدرى ماذا ، ربما نظرة العيون الصغيرة أو الصمت ، أو الحركات المنظمة ، تثير القلق . إلى جوارى سمعت صوتاً أمريكياً عالياً ومزعجاً يمط الكلمات ، فالتفت ناحيته لأجد عملاقاً أحمر الوجه ، عريض المنكبين ، يتحدث إلى شاب طويل بالغ النحافة تنطق قسماته بأصله الفارسى ترك شعر رأسه ينسدل على ظهره ، وقد ارتدى سترة طويلة تضيق عند الكتفين العاليتين . كان يتطلع إلى الرجل الأمريكى فى

شيء قريب من الإعجاب ، كأنه يستمع إلى الحكم الغالية . تذكرت للحظة منظراً طالما شاهدته فى القاهرة . ذلك الجمع الصغير من الأساتذة المصريين الذين يتجمعون فى الحفلات والمؤتمرات حول كل « خبير » من الغرب يستمعون إليه كأنه يقول ما لم يقله أحد من قبل .

انغمست مرة أخرى فى مقعد الطائرة المريح . صالات الترانزيت هكذا دائماً تثير فيك التساؤلات ، ورغبة فى أن تخترق الستار .

كانت المحطة الثانية نيودلهى . لم تكن فترة الانتظار فيها طويلة . فجلسنا فى الطائرة تنتظر . الحرارة اللافحة تهب علينا ، والعرق يسيل من فرط الرطوبة . على أرض المطار تتحرك الأجساد السمراء ، وضابط فى لباسه الأبيض يتناقش فى عصبية ، وأياد تلوح فى غضب وفى السماء تحوم الحدأ فى مجموعات لا نهاية لها ، باحثة عن شيء تنقض عليه . لمحت من النافذة الصغيرة الحقول المنبسطة ، والجاموس الأسود يغوص بأقدامه وسط النبات الأخضر . . أشياء تذكرنى بمصر .

لن تبقى الهند كتاباً مغلقاً . سأفتح الكتاب فى رحلة العودة .